الباب الثامن
الفلسفة العربية والفلسفة الألمانية
العلوم الألمانية تقتفي أثر أفضل المدارس العربية

- وحدة الفكر الإسلامي.
- التعاون الأخوي يشمل كافة الاهتمامات.
- المياه العربية تدير الطواحين الألمانية.

الفلسفة العربية والفلسفة الألمانية

العلوم الألمانية تقتفي أثر أفضل المدارس العربية

قام العرب بتأليف كتب تعليمية، خاصة بالأساليب المثلى للصيد وتدريب الصقور ، وقد أمر القيصر فريدريك الثاني - الذي كان من أكبر محبي الصيد بالصقور- بجمع تلك الكتابات وترجمتها ، كما أنه جلب إلى بلاطه مدربين من سوريا من أجل تدريب الصقور ومن أجل دراسته الخاصة للطيور وكيفية التعامل معها . كما أننا نعرف كتابه الخاص المسمى "حول فن الصيد بواسطة الصقور" والذي يستند إلى ملاحظات وتجارب شخصية عديدة للقيصر حيث يكمن خلف ذلك العنوان الخاص جداً علم كامل خاص بالطيور والذي يعتبر عملاً علمياً ليس فقط لأول شخص ألماني وإنما بالنسبة إلى الغرب برّمته .

ولقد امتدح القيصر الألماني مزهواً تجاربه الشخصية خلافاً لأرسطو ، الذي ابتعد عن طبيعة بعض الطيور لأنه لم يمارس الصيد نفسه اطلاقاً أحببنا الطيور دائماً، وتمرسنا على التعامل معها وكانت تكمن خلف ذلك الرغبة في التفوق على ذلك اليوناني، الذي أراد شرح الطبيعة، استناداً إلى النظرية والتكهن فقط، وكذلك التفوق على المعرفة المجردة السائدة المأخوذة من الكتب .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا القيصر المثقف الذي كان قارئاً نهماً لم يثق بالحروف تماماً، في حين أنه اعتمد كلية على ملاحظاته الخاصة فقد قال : لا يمكن للإنسان أن يثق بشكل أكيد من السماع فقط . لذا فقد كرّس القيصرُ جهده للكثير من الملاحظات الفردية والتجارب على الحيوانات هذه الملاحظات التي تعتمد على المشاهدة العينية والسماع المباشر لكي يصور الأشياء الموجودة على حقيقتها وفقاً لما قاله .

ولكن هل كان ذلك شيئاً غير عادي ؟ ألم يكن هم كل إنسان أن يرى الحقائق كما هي؟ كلا، ذلك أنه في إطار التطلع إلى ذلك العالم الأحادي النظر فإن المثقفين الأوربيين في ذلك الحين لم يكونوا مهتمين بالنظر إلى الأمور الطبيعية، كما أنهم لم يعطوا أهمية للطبيعة الحية حولهم إلا عندما ترتبط بالله، والروح أي كرمز للأمور الغيبية وتشبيهها بالإنسان الذي خُلق كل شيء من أجله، بدءاً بالحيوان وحتى الأعشاب، ولكنه لم يهتم بها في حد ذاتها في حين أن الطبيعة وحدها أعطت مجالاً للتأمل انطلاقاً من الكتاب المقدس وكتابات وشروحات الإنجيل.

إن ذلك الإمبراطور الذي كان العرب يسمونه أفضل شخص في ملاحظة ما تدركه الأبصار، كان يريد أن يعرف كنه ظواهر الطبيعة، ولماذا تعرف على هذا النحو. كما أن ذلك الرجل المتعطش إلى المعرفة، والذي ظلّت كلُ علوم الغرب النائمة في أحضان اللاهوت، مدينة له بالإجابة عن كل تساؤل، الرجل الذي تأثر وجدانه منذ نعومة أظفاره بالعالم القائم في باليرمو، والذي كان لا يزال خاضعاً للتأثيرات العربية حيث إنه كان محاطاً بالخدم، والرفاق والمدرسين العرب وغيرهم ويتحدث العربية بطلاقة، كان يهتم بالقراءة، والحساب وقرض الشعر. ومن ثم فقد كان يتوجه بأسئلته في أمور العلوم الطبيعية، والرياضية مباشرة إلى العلماء العرب، وهي تساؤلات كان الغرب لا يزال بعيداً عن مناقشتها حتى ذلك الحين، وما كانت لتخطر مطلقاً على بال علمائه. وكان يسعى عن طريق تلك التساؤلات إلى كسب صداقة السلطان الكامل ومشاركته العقلية له وإلى إقامة صلات سياسية معه.

ومن أمثلة تلك التساؤلات : لماذا يبدو المجراف والرمح وكافة الأجسام الغاطسة في الماء منكسرة في الجزء الموجود فوق سطح الماء ولماذا يبدو السهل عند

بدايته أكبر من منتهاه على الرغم من عدم وجود رطوبة في اتجاه الجنوب؟

لماذا يرى من تثور حدته وتغيم عيناه، بقعاً سوداء مثل الذباب والبعوض خارج عينيه على الرغم من عدم وجود شيء خارج العين وإن الشخص المعني في كامل وعيه.

إنها أسئلة تطرح بدافع من تجربة المرء، وتتطلب من ثم اختباراً فيزيائياً، ونفسياً بلا خلفية سابقة، بما يتفق مع العلوم العربية المتقدمة، وكان ذلك أشبه بالاعتراف بالكفاءة العالية المؤكدة للعلوم العربية، التي كانت سائدة في كافة مجالات العلوم: في الرياضة، والميكانيكا، والبصريات، والفلك، والجيولوجيا، والنباتات والكيمياء، والصيدلة والطب (كما أوضحنا في كتاب شمس الله تسطع على الغرب) بفضل تكوينها الواعي الذي ميزها في أيّ من هذه المجالات. ولقد كانت رعاية الفلسفة الطبيعية اليونانية والروح اليونانية المتمثلة في عالم الحقائق، عن طريق إرادة عبقرية حيث يؤدي الحماس الشديد من أجل النقاء إلى التوصل إلى الحقائق، العامة والإدراك الكامل للفكرة. وكان هذا هو الأسلوب الذي سار عليه العرب على ذلك الدرب الشاق، درب الملاحظة والتجربة التي كانت تضع نصب عينها الشخص الفرد في كينونته.

ولقد اهتدى العرب إلى الأسلوب التجريبي في العلوم الطبيعية عن طريق التكرار والجَلَد المنظم للحقيقة نفسها في ظل ظروف مختلفة. وبهذه الطريقة الخاصة في التفكير والتي تمكنوا من خلالها إتقان علوم جديدة كاملة، كانت لاتزال غير معروفة لدى الإغريق واستطاعوا من خلالها تحقيق تقدم حقيقي في المعرفة تفوقوا فيه على الإغريق.

كما لم يقتصر فضل العرب على استكشاف الميراث الإغريقي الذي طواه

النسيان، بالفعل، وعلى جمعه، وترجمته في مجلدات ضخمة بشكل منهجي، ويقول النبي (ﷺ) في معنى حديثه : "إن من يسعى إلى العلم يكون كمن يتعبد".

وكما حثّ الناس على نهل العلم من أي منبع، حتى ولو أخذوه من شفتي كافر، وأدى ذلك إلى عدم استعباد روحهم أو إشباعها بأية حال، وذلك أن استقبال المعارف الغريبة وتطويعها كان يتناسب تماماً مع جهود إيقاظ تلك الروح الوثابّة وتدريبها وتقويتها.

وفي خضّم ذلك كله خرج شخص بتلك الكلمة المدهشة:

"إن الشك هو الشرط الأساسي للمعرفة" وعن طريق هذه الجملة الجريئة استطاع زعيم المعتزلة "إبراهيم النظام حوالي عام ٨٠٠ أن يمهد الطريق لحركة إسلامية واسعة التأثير أمام الازدهار العظيم للعلوم العربية الذي بدأ مبكراً واستمر حتى القرن الرابع عشر.

وحدة الفكر الإسلامي

لقد كانت الأفكار القادمة من التعاليم الزرادشتية والمثنوية في إيران تهدد بالتسلل إلى داخل العقيدة الإسلامية بشكل متزايد. مما استوجب ظهور قوى مدافعة عن الإسلام من أبنائه مثل مدرسة المعتزلة النشطة التي كانت البصرة مركزها الروحي. ولقد كانت هناك روابط وثيقة تتسم بالود تربطها مع الخليفة العباسي الثاني المنصور امتدت إلى كافة خلفائه باستثناء ابنه هارون الرشيد، كما أن حفيده المأمون الذي بدأت في عهده انطلاقة العلوم الواضحة. قد أعلن عام ٨٢٧ هـ عقيدة المعتزلة ضمن تعاليم الدولة ؛ أي الإيمان بوحدة الله، ونقاء جوهر العقل الإلهي، والإيمان بأن الله ليس شبيهاً بالإنسان، وأنه لا يمكن تجسيده، فهو موجود في كل مكان وفي الوقت نفسه فهل كان ذلك يوفي الربط بين الإدراك الإنساني وبين الإدراك الإلهي معناه أن الرشد النابع من التكرار لم يكن هو الدافع وراء تلك المقولة. وهذا الأمر كان يهتم به المعتزلة دائماً، ولأن المطلوب هو العمل على أن يؤدي الإدراك والمعرفة إلى إنارة طريق الإيمان، ولذلك قال النبي (ﷺ) في معنى حديثه : " إن الدراسة تبلغ مرتبة الصيام، أما العلوم فإنها ترقى إلى مرتبة الصلاة» ، ولقد وجههم (ﷺ) إلى الطبيعة، وإلى الأرض الرحبة" أينما اتجهتم فثم وجه الله " الأمر الذي جعل الصوفي بن عربي يقول : "إننا نراه في كل شيء تقع عليه أبصارنا، من دون أن يحيد نظرنا لحظة واحدة" وهكذا أيضاً فإن أبا حنيفة أجاب على أحد المعتزلة في منتصف القرن الثامن تساءل عن مركز الأرض بقوله : (إنه يوجد حيث تجلس) إلا أنه حسبما ذكر القسام مراراً تكراراً ، وهو الذي مهد الدّرب أمام المعتزلة وأحاط بكل الأمور، فإن الشيء الوحيد الذي يكون صحيحاً هو ما تدركه الأبصار والآذان والذي يثبت العقل غير

المقيد أنه صحيح. ولقد نظر كثير من الباحثين بجدية تامة إلى ذلك المطلب مثلما فعل الطبيب ابن النفيس الذي صرح في القاهرة بقوله : "مع كل احترامنا لجالين" ، فإننا نقدر أكثر ما نراه بأعيننا" .

لذلك كان ابن النفيس هو أول من اكتشف ووصف الدورة الدموية بدلاً من الفكرة التي كانت سائدة عن وجود ثقوب في الجدار الفاصل للقلب، تسمح بمرور الدم. ثم هناك أيضاً عالم النبات العظيم ابن البيطار من الأندلس، الذي كان على استعداد تام - حسب ما ذكره في مقدمة كتابه الأهم لأن ينقل فقط عن المؤلفين القدامى والمحدثين "ما أجده صحيحاً عن طريق الملاحظة والتجربة الشخصية وأن أدع مالا أستطيع إثبات صحته أو ما يتضح أنه يتعارض مع الواقع" .

وتلك كانت هي روح ولغة هؤلاء القوم التي كانت تتفق مع روح ولغة القيصر الباحث فريدريك الثاني، والتي كانت أيضاً غريبة عن روح الغرب الرسمية التي تسمح بها الكنيسة والتي كانت تقيد كلّ أوجه الفكرة في خزانة سلطان الإنجيل، والقساوسة، والذي أخمد كل نشاط عقلي مستقل يبدأ في التحرك في أي مجال ويضطهده متهماً إياه بالهرطقة، ومجبراً على التزام الصمت. وهي أمور يمكن للإنجليزي ابتلهارت فونبات أن يروي عنها الكثير حيث صدم في موطنه بسبب حجب كافة المعارف الطبيعية بعد أن كان قد تنفس حرية الحياة الفكرية في الدول العربية التي كان قد عاد منها لتوه فقال :

"إذا أغفلنا التعّرف على ذلك الجمال الرائع، والعاقل للكون الذي نعيش فيه، فسوف نكون جديرين بأن نطرد منه، كما يحدث لضيف لا يستطيع احترام المنزل الذي يستضيفه».

ولقد تعلمت من المعلمين العرب أهمية تولي العقل لقيادة أمورك في حين

أنك تسير وفق سلطة موجهة أشبه بالسجين في زنزانته. وإذا ما سيق حيوان إلى مكان ما فإنه لا يستطيع تمييز الاتجاه أو السبب، وإنما هو يسير مع القطيع، وهكذا أيضاً تقود سيطرة كتابات كثير منكم بمن هم مقيدين بسبب ترفهم الحيواني غير المروض.

ولقد كان مقدراً على الرغم من ذلك أن تزرع بذرة العلوم التجريبية العربية، وعلوم الطبيعة التجريبية في أرض البلاد الألمانية، وأوربا الغربية على وجه الخصوص، لتجد تربة خصبة لاستقبالها، مما جعلها تثمر محصولاً غنياً لا يزال العالم كله يعيش عليه حتى اليوم لم تسقط هذه البذرة في تربة بيزنطة، أو التربة اليونانية التي كانت خصبة ذات يوم، كذلك لم تسقط في شرق أوربا وروسيا أو الهند أو الصين.

وهناك سؤال يحظى بأهمية بالغة يطرح نفسه : ما هو السبب في أن الشرارة التي أدخلها العرب في العلوم الطبيعية الدقيقة قد اشتعلت هنا فقط لكي تلقى بعد ذلك انبعاثاً من أوروبا، وضوءاً يسطع على كل شيء ، هو ضوء العلم في كافة مجالات تطبيقه كالتكنولوجيا التي سيطرت على العالم بأكمله؟ وكيف كان ذلك ممكناً؟ هل كانت هناك رغم كافة الاختلافات، أوجه تشابه ، أو شيء ما فتح المجال أمام الاستعداد للفهم والتلقي ؟

في الحقيقة أنه قبل أن تشتهر أولى المخطوطات العربية بوقت طويل، وقبل أن يقوم الدارسون الأوروبيون في أشهر الجامعات العربية، التي كانت نماذج تحتذى في الغرب ، بجلب العلوم والأساليب العلمية للعرب إلى الغرب، كان الاحتجاج على الوصاية الروحية والعقلية قد بدأ هنا بالفعل وقبل مدة طويلة من اشتهار الكتابات العربية وقبل أن يستجلب الدارسون الأوربيون معرفة وطرائق العرب العلمية من الجامعات العربيةالشهيرة بدأ الاحتجاج هنا والنابع من

الضرورة الجرهرية والفكرية الداخلية على الوصاية الفكرية، لا بل ذهب ذلك الاحتجاج إلى مدى أبعد حيث توجه ضد إعادة التربية الفكرية المزدوجة والغريبة والتي تشوه الأشياء والعالم، كما هم عليه في حالتهم الراهنة.

نعم، في نفس الوقت تقريباً الذي قام فيه إبراهيم النظام في خلافة المأمون "بتمهيد الطريق" أمام المعتزلة، فإن الإسكتلندي أريجونيا كتب في بلاط القيصر، كارل الأصلع كتاباً "حول تجزئة الطبيعة"، حيث اعترف في البداية دون لبس بأولوية الفكر، المستقل على ماعداه من سلطات، وأعطى تلاميذه الكلمة التي يعشقها هو نفسه: "لا يجب إذن أن تردعك أية سلطة عما يعلمه لك العقل استناداً إلى الإدراك السليم".

وهكذا كان كل شيء داخله يقاوم ازدواجية الأساليب، كالمسيحية والأفلاطونية الجديدة وضد انكساف واحتقار عالم المادة الخاطئ. والذي لا يبدو كونه عائقاً مزعجاً بين الإنسان الهابط وجلال الإله في عرشه المتسامي عن العالم. إلا أن البوابة قد انفتحت، وأصبحت النفس الإنسانية تجد في الطبيعة مجالاً جديداً لكي تدرك معنى ذاتها، عن طريق إدراك جوهر وطبيعة الألوهية ذاته، وهذا هو الدافع الدفين لعلم لا يزال في بدايته. وطبيعة الأشياء هي نفسها التي تنير لنا طريق معرفة الكيفية التي بني بها هذا الكون، حسبما ذكره التلميذ الألماني لاريوجنياس في بداية القرن الثاني عشر، وهو هونوريوس فون تريجنسبورج. وليس هناك ما يلقى ضوءاً كاشفاً على مبعث فلسفة عالمية جديدة على الرغم من قدمها أكثر من الإجابة التي جاءت على لسان فون كرنشس النورماندي، وذلك حين ذكر رجال الدين أنه قد حصل على المعلومات عن نشأة الإنسان من الإنجيل حيث قالوا: "إن البحث عن جوهر الأشياء وعن قوانين نشأتها إنما هي أكبر مهمة

ملقاة على عاتق الإنسان المؤمن، وهي المهمة التي يجب علينا الوفاء بها عن طريق تعاوننا الأخوي للإيفاء بفضولنا. وحين يظهر إجماع يسلم سانت فيكتور شخصيته من جراء تزايد الفضول تجاه شكل الأرض، وطبيعة عناصرها، ومواقع النجوم، وطبيعة الحيوانات، وقوة الرياح وحياة النباتات، والديدان، فإننا نجد أن فيلهلم قد أظهر غضبه قائلاً: " إن من لا يدركون قوى الطبيعة وإدانة العالم القائم على المادية الآثمة التي لا تخرج عن كونها عقبة كأداء تحول عرش فوق عوالم عدة والذي يختلف كلية. .

وبالنسبة إلى أريوجنيا - الذي كان خلافاً للنظام، ناسكاً- وحيداً يشق طريقه بشجاعة والذي سيتبعه فيما بعد عدد لا يحصى من النساك الهراطقة الملعونين- كانت الطبيعة والإنسان داخلها شكلاً من أشكال الألوهية، وعدداً لا نهاية له من الوحي الذاتي والتطور الذاتي للألوهية غير المحدودة. إلا أن تلك الألوهية المتمثلة في كل شيء وتعد جوهر كل شيء تتحول في الإنسان إلى الوعي بذاته إلى الحد الذي يجعل الوجود الإلهي يلتقي داخل العقل الإنساني بالقدرة على الإدراك والمعرفة، الأمر الذي يتيح إدراك مدلولات الأشياء وبذلك سيتوحد داخل الإنسان الإدارك الإلهي مع الشيء. ولكن في حين أن النظام لم تكن به حاجة إلى أن يترك ساحة الإسلام نجد أن أريوجنيا يتخذ موقفاً متناقضاً مع العقيدة السائدة، ولهذا السبب فقد تعرض مع العديد من تلاميذه لملاحقة واضحة وشكاوى وخطر بل وأسوأ من ذلك.

«يريدون أن يربطونا بجهلهم حين ينازعونا الحق في أن نبحث عن الأسباب ثم يدينوننا بأننا نتمسك بعقيدتنا بشكل عنيد كما تفعل الحيوانات، ذلك أنهم عندما يعرفون أن هناك من يبحث عن المعرفة فإنهم يرفعون عقيرتهم متهمينه بالزندقة. . "

التعاون الأخوي يشمل كافة الاهتمامات

ونظراً لوجود توافق أخوي مع فضولنا والذي سيبدأ منه العالم الإسلامي المعرفي، بل وسيعتمد عليه، على حين ظلت الكنيسة حتى عهد كوبريتكس وجيوردانو برونو وجاليليو وبعدهم تعاقب بشكل قاس على عملية "البحث عن المصادر" أو "قوانين الطبيعة"، وهو الأمر الذي كان من شأنه أن يؤدي إلى حدوث تطورات مخيفة للغاية.

فهل كان من الممكن أن تنشأ علوم (الطبيعة) حقيقة على هذا الأساس الوعر للازدواجية التي تقوم عليها الفلسلفة المسيحية والإغريقية؟

وهل كان ذلك متاحًا بصورة غير التي تحدث عن طريق إرادة الله التي تخلق المعجزات، أو تفيض بالرحمة أو تفرض العقاب، أو عن طريق تجسيد تلك الإرادة في الإنسان وعن طريق الأسرار، أو تتجسد في العالم البغيض المناقض له والذي تسيطر عليه الأرواح الشريرة.

ثم هل كان في وسع العلم الحقيقي أن يتطور استناداً إلى الازدواجية في فلسفة أفلاطون وأرسطو؟

وبالصورة التي كان الفكر الصوفي مسيطراً فيها خلال ذلك العصر وهي الازدواجية التي هيمنت عليها ظاهريا المبادئ والشكلية للمادة (الميتة) حيث عملت مسببات ما وراء الكونية والمحرك الأول الذي يعتريه الزوال والتي تتدرج مرحلياً من أعلى إلى أسفل على التسبب في إضعاف السببية ككل وكل حالة تفيد المادة السلبية الخالصة بشكل متجدد دائماً؟ وهكذا كان المفهوم السائد آنذاك! فهل كان متاحاً أن يتطور علم طبيعي تجريبي دقيق حيث تتغير القوانين السائدة كما تتغير الأمزجة وذلك بدلاً من أن تصبح سارية بشكل عام، كأن تتغير قوانين

الحاضر ولا تصبح هي نفسها قوانين الغير وأن يحدث ذلك حيث أوجد، وليس هناك حيث توجد في ذلك المجال أجسام سماوية تختلف عما يوجد في المجال الإلهي الأرضي الحقيقي.

ولم يكن متاحاً التوصل إلى علم حقيقي على أساس المفهوم الديني للطبيعة والمفهوم الأولي للمادة، وهو ما يسري تماماً بالنسبة إلى المفهوم العربي، والذي كان كامناً كذلك في أوروبا، وهي المادة التي لا يعتريها نقص. كما هو الحال بالنسبة إلى توماس فون أكونيان - فإنه مفهوم واقعي نحو الإدراك الملموس لله الذي تشمل وحدته كل ما هو عظيم أو صغير وتفرض عليه التوحد. كما أن الوحدة الداخلية للكينونة كلها، وقوانينها السارية، التي تسيطر على كل مكان في الكون !! تماماً كما أن "مركز العالم" يوجد في كل مكان، وكذا المرونة المعرفية التي تعتبر الفهم المطلق والسبيل إلى معرفة كافة نواحي الإدراك بالنسبة إلى العلوم.

المياه العربية تدير الطواحين الألمانية

عملت قوى عديدة سوية من أجل تعميق الأخاديد بغرض إتاحة الفرصة لزرع البذور. وقد ساعدت الحروب الصليبية على شحذ ملكة الإدراك وإمكانية تقييم الأشياء كما جعلت الروح أكثر تسامياً، وأكثر حركة. كذلك أدت إلى توسيع الأفق الفكرى مكانياً، وجماعياً كما ساعدت المقارنة على زيادة القدرة الانتقادية. وكلما طالت فترة الحروب الصليبية وأصبحت ثمار جهودها غير الإنسانية موضع شك، ساعد ذلك على نمو حالة التبرعم كما نمى الإدراك بعدم مصداقية الاختصاصات الكنسية. وإذا كانت الظروف غير الطبيعية قد ألقت في البداية بستائرها الكثيفة على الأشياء، والناس فقد تمزقت الآن تلك الأستار. وبدأت العين تكتشف العالم على حقيقته الأرضية الظاهرة التي لا تنأى عن الله

وإنما تهدي إليه. ولقد تساءل فريدريش فورن زونينبورج في نبرة تحد قائلاً: "لو لم يكن العالم موجوداً فكيف نستطيع إدراك الله؟"

لقد بدأت العين تكتشف الطبيعة مثلما فعل هيلدبيجارد فون بينجن، وألبرت فون بولستدت، أو ألبرتوس مجنوس. وتراها على أنها كل منظم يشمل كل شيء، أي على أنه "الكون"، وهكذا بدت في ساليرنو، وصقلية وفي إسبانيا بشكل خاص بمساعدة اليهود من كافة الدول الأوروبية عملية ترجمة هائلة لفيض من الكتب العربية إلى اللاتينية، والتي شملت الترجمات العربية للمؤلفين الإغريق وكذا أعمال العلماء العرب. كما قام فريدريك باراباوسا الأول بإرسال جيرهارد فون جريمونا إلى أكاديمية المترجمين في طليطلة والتي أسهم في عملها أيضاً آيتلهارت فون بات وميخائيل سكوتس، ومعلم البلاط لدى فريدريك الثاني. وهكذا تم جلب أولى الكتابات عن الطب العربي من سارنو عبر جبال الألب، وكذلك العديد من الإنتاج المفيد والمرغوب من روح الابتكار الفني لدى العرب، والتي اهتم بها هيرمان كونتر كونتراكتوس في رايشناو. ومن أمثلة تلك المبتكرات الساعات وأجهزة القياس بكافة أنواعها وأدوات الرفع ومولدات الطاقة والعدسات وغيرها من الأجهزة البصرية والفلكية والطبية ومعدات الكيمياء العملية.

ثم تلا ذلك في صورة دفعات متزايدة الشدة، هبوب رياح ثرية لا يمكن إغفالها من أدوات البحث، والنتائج والأساليب، والتي ساعدت جزئياً على إعطاء دفعات نابضة ومباشرة والتي بدأ بعضها يبرعم بشكل تدريجي وذلك لأن الرياح الكنسية واللاهوتية الحرفية كانت قوية للغاية مما جعل التعامل مع النبضات الجديدة يمثل خطورة بالغة وتأرجح ذلك الوضع مئات السنين وعلى الرغم من ذلك فقد حاول البعض في أوروبا بين الحين والآخر النفاذ إلى تلك الروح: رجال من أمثال روجر باكون الذي اضطر لأن يبقى عشرة أعوام في المنفى وخمسة

عشر عاماً في السجن ثمناً لاهتمامه النظري والعلمي بإنجازات الحسن بن الهيثم في البصريات وبالكيمياء والميكانيكا وعلوم الحرب.

وهناك أيضا زيجرفون برايانت الذي استبدل المذهب الازدواجي لأرسطو عن المادة بالمذهب التوحيدي لابن رشد المسمى أفيروس، الأمر الذي أدى إلى خنقه في سجن البلاط الباباوي. وكذلك الإسباني أرنالد لدوي فيلافون الذي اضطهدته محاكم التفتيش. بسبب ترجمته واستخدامه للكتب العربية حول الطب. وكذلك مواطنه الأصغر سناً، ميخائيل سيرفيت، الذي روج لفكرة ابن النفيس عن الدورة الدموية الصغرى حيث نفي بسبب عقيدته التوحيدية المستمدة من الإسلام. وهناك أخيراً القيصر فريدريك الثاني، الذي عزله البابا بنفسه في مجلس ليون عام ١٢٤٥ بسبب ميوله وهواياته العربية وغيرها من أعمال "الهرطقة". كما خلعه من كرسيه وكافة أشكال التكريم وأعلن أنه خان قسمه بالولاء.

ولم تكن تلك سوى البداية لسلسلة لا نهاية لها من العقوبات الكنسية بسبب الارتباط الروحي والفكري بين العرب والأوروبيين والألمان، وهو الارتباط الذي أتى بثمار مباركة غير محدودة بالنسبة إلى تطور الفكر الأوروبي والألماني على الرغم من تلك العقوبات.

وإذا كنا اليوم على العكس من ذلك ومن خلال التعاون قد أصبحنا الطرف الذي يعطي التعاون الثنائي وإذا كان الجانب العربي هو الذي يأخذ عنا اليوم العلوم الحديثة المتطورة والتكنولوجيا القائمة عليها، فإن ذلك أمراً ممكناً ويحمل في ثناياه تطورات المستقبل لأن الإسلام بعد قرون من الجمود الشديد والتغريب الاستعماري، وفرض الوصاية عليه أصبح يشهد اليوم ميلاداً ثانياً يعمل على تنقيته وتجديده وأصبح يقابل بتفهم واستعداد طبيعيين لتلقي العلوم التي أدت العبقرية العربية إلى وضع بذرتها لدينا حين أغرقت المياه العربية حقول ثقافتنا.

الختام

أمور مشتركة تربط العرب وأوروبا

تميزت اللقاءات بين العرب والألمان طوال اثني عشر قرناً بنوع غريب من التعاطف. ولهذا أسبابه فقد كان هناك قبل ذلك التلاقي لفترة طويلة وخلال العصر "الوثني"، صفات معينة تميز كلاً من العرب والألمان أخرجت إلى الوجود تناسقاً وارتباطاً فريداً، رغم كافة الاختلافات في العنصرين وهو الأمر الذي افتقرت إليه العلاقات مع العديد من الدول الأخرى، وما زالت تلك المميزات المشتركة قائمة حتى اليوم. وبدون أن ننكر الأساليب المعرفية والبنى الفكرية لكلا العرقين أو نحاول طمسها، فإننا نلاحظ أن كلا الشعبين قاما استناداً إلى جوهر كلي، وبصفة مستقلة عن الآخر، بتطوير نماذج فكرية وسلوكية متشابهة، ليست بأية حال نفس الصفات التي تتميز بها كافة شعوب أوروبا والشرق، وذلك بغض النظر عن تلك النظرة الإنسانية الشاملة للطرفين، ويتجلى ذلك في إدراك معنى البطولة. إذا كنا نعني تحت هذا المفهوم السائد اليوم من جانب واحد الذي يدينه الجميع والمتمثل في ضرورة أن لا يكون الإنسان أنانياً وعلى استعداد شخصي لخدمة الإنسان، وفي أن يكون ذلك يمثل قيمة ما ويجري فهمه من منطلق الإخلاص للذات، وأن يكون لديهم إدراك لمعنى إكرام الضيف الذي يتطلب الالتزام بالمسؤولية، وتوفير الحماية حتى للخصم إضافةإلى إدراك معنى الفروسية، التي تعترف بأن العدو هو خصم كفء ومن ثم تحترم سلوكه، عدا عن أنه مفهوم واضح لمعنى التسامح، والذي يحترم العقائد الأخرى، ويعترف لذوي العقيدة المخالفة بحقهم في الوجود والحرية وتركهم يعيشون داخل الوطن نفسه كشريك يقف على قدم المساواة.

إلا أن هناك أيضاً أساساً فكرياً لذلك التعاطف بين الشعبين جعل من الممكن أن تتم عملية التفاهم والازدهار الفكري بينهما، وهذا أيضاً بدوره يميز الطرفين بصورة أساسية عن الشعوب الأخرى. وذلك لأن الشعوب - طالما أنها ليست مجبرة بتأثير القوة - تأخذ فقط ما يقع في نطاق إدراكها وفهمها لكي تعبر عنه بأسلوبها الخاص، وبقواها الذاتية تعبيراً سليماً حقيقياً. كما أن هذين الشعبين يقومان باستبعاد ما لا يتفق معهما إما عن طريق الرفض، أوالاحتجاج أو المقاومة. وعلى الرغم من أن مفهوم كل العرب والألمان عن العالم والله غير متطابق على الإطلاق من ناحية الجذور، إلا أنهم حين يعيشون في ظل الحرية يجمعهم فكر واحد يعمل على إيجاد تناسق بين الدنيا والدين، وبين الحياة في عمومها، الأمر الذي يجعل الإقبال على الحياة والترحيب، بالعالم يمثل وحدة فكرية طبيعية غير متناقضة من خلال إحياء وجود ديني راسخ.

وينتمي إلى تلك القاعدة المشتركة في الإدراك وعي بالواقع لديهم فقط كما يحدث في أجزاء كبيرة من أوروبا ولكن ليس في أي مكان آخر في العالم، وذلك نتيجة لنظرتهم الواحدة للكون مما جعلها مهداً للعلوم الطبيعية الدينية، وبوتقة ومهداً لها، وهنا فكر واحد مشترك ليس من شأنه أن ينزلق إلى خطر العقلانية أو المادية - وهي أمراض الازدواجية العقائدية والفكرية- على الرغم من إعمالهم العقل بصورة كاملة، وهو الفكر الذي يقدر على الجمع بين العمل الإدراكي الواضح المنطقي مع العودة إلى أعماق الوجود. فنجد أن كبار الصوفة العرب من أمثال الغزالي وابن عربي يقفون هنا أمام المعلم ايكهارت ومع كثير من تلاميذه خاصة في ألمانيا ومن الأمور المفاجئة هو ذلك القرب بين أفكارهم جميعاً، فهل

كان هناك اتصال غير مباشر بينهم؟ وهل يكون ايكهارت قد استمد أفكاره وأسلوبه من "الانعزال" من كتاب "أكسير السعادة" للغزالي، تماماً كما تأثر معاصره دانتي فأفكار البعث للمحبوب الموصل إلى الله من أفكار الصوفي ابن عربي.

لهذه الأسباب التي لم تكن صدفة، طالب الكثيرون ممن يسيرون وفق الفكر الألماني الديني الموحد - مثل نيكولاوس فون كويس، وسيباستيان فرانك، وليسنج، وهيردر وجوته - طالبوا جميعاً بمساواة الإسلام مع الديانات الأخرى. وذلك لأن الله موجود لدى جميع الشعوب، ولأن الناس يمتلكون نتيجة لوحدة أساس الوجود الإلهي لديهم حرية الوجود والعقيدة بالصورة التي تسعى بها تلك الحرية إلى فرض النظام السلمي الذي يربطها جميعاً، أو كما نقول بعبارة فولفرام فون إيشنباخ: "لأن الناس جميعاً عباد الله" لهذا السبب فإن الموريسكو المطرود من إسبانيا "ريكوتا" قد بحث عن موطن جديد له في ألمانيا، لأنه حسبما قاله لسانشو مانزا: "إن المرء يعيش في حرية عقيدية في الجزء الأكبر من ألمانيا.

ولا يزال من الأمور التي تثير دهشتنا وخجلنا أن نقرر أنه على الرغم من العيش طوال ١٢٠٠ عام في حيرة ورغم اللقاءات والتبادل الفكري مع شعب يعيش على أبواب أوروبا مباشرة جنباً إلى جنب معنا فإن جهلنا بطبيعته وفكره لا يزال شائعاً. ونحن الألمان على وجه الخصوص الذين لم يكن لدينا أي علاقة استعمارية مع الشعوب العربية لا نعرف سوى القليل جداً عن الفردية، أو عن لقاءاتنا وعلاقاتنا الودية السابقة أو تكون معلوماتنا في معظمها خاطئة.

إن ما يريد هذا الكتاب تحقيقه هو: أن نحاول أخيراً إيجاد قاعدة عريضة

للفهم المتبادل لتعايشنا في الحاضر والمستقبل مع العالم العربي ومن أجل اللقاءات والأحاديث مع ساستنا وعلمائنا ورجال الاقتصاد لدينا ومهندسينا وصحفيينا وكذلك بالنسبة إلى حركة التجوال الكبرى للسياح ، بل بالنسبة للعرب والألمان بصفتهم شركاء مستقبل في السياسة الدولية .

قائمة بالكتب والمراجع العربية
والأجنبية المستخدمة في الترجمة

١ - أبو عبيدة : جغرافية أوربا من كتاب المسالك والممالك - طبعة بيروت (الخريطة المنشورة في الكتاب).

٢ - أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون بالقاهرة ١٩٥١ - القسم الثاني، الطبعة الأولى (ص ٨٣٠).

٣ - زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧م.

٤ - زكي نجيب محمود : الأهرام القاهرية في ٤/ ٥/ ١٩٧٩م

٥ - عبدالباقي : معجم ألفاظ القرآن - طبعة الشعب.

٦ - عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية - الجزء الثاني - القاهرة.

٧ - فؤاد حسن علي : ترجمة كتاب شمس الله على الغرب - دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤.

٨ - د. مصطفى ماهر : ألمانيا والعالم العربي - بيروت ١٩٧٤.

قائمة بأسماء البلاد والمدن والأنهار

وترجمتها بالعربية

Akkon	عكا	Nazareth	الناصرة
Almeria	ألمرية	Niniveer	نينوى
Antiochia	أنطاكية	Provence	البروفانس
Aquitenia	أكويتانيا	Pyenaen	جبال البرانس
Barbastro	حسن باريشتر	Ramleh	الرملة
Caesave	القيصرية	Saleph	نهر الساف
Cilicion	قلقيلية	Saragossa	سرقسطة
Genezareth	بحيرة طبرية	Sevilla	أشبيلية
Gordoba	قرطبة	Sizilien	صقلية
Granada	غرناطة	Tyrus	صور
Guad Alquivir	الوادي الكبير		
Hermon	جبل الشيخ		
Lonium	فونيا		
Ifrikija	افريقية		
Karthage	قرطاجة		
Jastilien	قسطلة		
Navarra	يافارا		

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم.	٥
مقدمة المؤلفة.	٩
الباب الأول: الصلات العربية - الألمانية.	١٣
عربي يهرب إلى ألمانيا.	١٥
روابط الصداقة بين شارلمان والعرب.	٢٤
الصداقة المؤجلة بين والي قرطبة والإمبراطور أوتو الأول.	٣١
الباب الثاني: الفروسية العربية والفروسية الألمانية.	٣٥
الحدود العدائية تصبح ساحة اتصال.	٣٧
الفروسية العربية.	٤٤
من هو الفارس الألماني.	٥٠
الكنيسة تتعلم في مدرسة الإسلام.	٥٣
روابط الفرسان محاكاة للفروسية الإسلامية العربية.	٥٩
الباب الثالث: الحروب الصليبية - الصراع بين الشرق والغرب.	٦٧
تباين المواقف من خلال الصراع ضد الإسلام.	٦٩
بقعة تلوث الثوب الأوروبي.	٧٣
تحفُّظ الألمان على حمّى الحروب الصليبية.	٧٧
سيد عظيم يغذ السير نحو الأراضي المقدسة.	٨١
هل كانت حروب آل شتاوفن حملات صليبية؟	٨٥
صديق العرب.	٩٢
الباب الرابع: الفروسية العربية والأوروبية.	٩٥
الفروسية العربية تجعل القساوة المسيحية تندى خجلاً.	٩٧

الموضوع	الصفحة
القيصر فريد ريك الثاني يؤسس للسلام .	١٠٢
جذور الفروسية الألمانية والعربية .	١١١
نماذج الفروسية العربية .	١٢٢
التسامح العربي والألماني .	١٢٨
الألماني النبيل . . رمز للفروسية .	١٣٤
الباب الخامس: التأثيرات العربية تخلق نوعية حياة جديدة.	١٤٥
التأثيرات العربية تخلق نوعية حياة جديدة .	١٤٧
الملابس العربية تضفي بهاء على من يرتديها .	١٥١
الأنامل العربية تطرز رداء القيصر الألماني .	١٥٨
أحد المسلمين يتحول إلى قديس للإمبراطورية .	١٦٤
الهبات العربية للكنيسة والمنزل والحدائق .	١٦٩
المهن العربية والصناعات الأوروبية .	١٧٤
«الدينار الذهبي العربي» أو «دولار العصر الوسيط المبكر» .	١٧٧
الباب السادس: التأثيرات العربية تخلق أسلوبًا جديداً في الحياة.	
يقظة الروح.	١٨٣
التأثيرات العربية تخلق أسلوبًا جديداً في الحياة . يقظة الروح .	١٨٥
وتقف القلاع جريئة شامخة .	١٨٩
التأثير في مجالات الدفاع والأسلحة والملابس .	١٩٧
الشعارات - الرايات - وعلامات القتال .	٢٠٣
الحركات التي تقدم على ظهور الجياد .	٢٠٧
لقد استعبدوني الحب .	٢١٠
فن الحب العربي يصبح فنًا رائجًا .	٢١٥

الموضوع	الصفحة
الكلمات الحلوة .	٢١٩
«رمز المحبة العربية» الأنوثة الأصيلة تجذبنا إليها .	٢٢٤
الباب السابع: نبضات الفن العربية .	٢٢٧
نبضات الفن العربية .	٢٢٩
المترجم يبوح بأسرار العالم .	٢٣١
الجرال . . رمز عربي .	٢٣٤
على قلب رجل واحد بالألمانية والعربية .	٢٣٩
التأثيرات العربية في الشعر الألماني .	٢٤٢
إيقاعات السلم الموسيقي العربي - نموذج يحتذى .	٢٤٦
العود العربي وأنواعه .	٢٤٨
تمضية وقت الفراغ على الطريقة العربية .	٢٤٩
الباب الثامن: الفلسفة العربية والفلسفة الألمانية .	٢٥٥
العلوم الألمانية تقتفي أثر أفضل المدارس العربية . الفلسفة العربية والفلسفةب الألمانية - العلوم الألمانيةب تقتفي أثر أفضل المدارس العربية .	٢٥٧
وحدة الفكر الإسلامي .	٢٦١
التعاون الأخوي يشمل كافة الاهتمامات .	٢٦٦
المياه العربية تدير الطواحين الألمانية .	٢٦٧
الختام : أمور مشتركة تربط العرب وأوروبا .	٢٧١
قائمة بالكتب والمراجع العربية والأجنبية المستخدمة في الترجمة .	٢٧٥
قائمة بأسماء البلاد والمدن والأنهار وترجمتها بالعربية .	٢٧٧